المحاضرة الحادية والعشرون

العهد ٥٩

ومن عهد له ع كتبه للأشتر النخعي رحمه الله لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميره عليها محمد بن أبي بكر

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاةِ قَبْلَكَ وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَامْلِكْ هَوَاكَ وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ وَكَرِهَتْ .

معاني المفردات:

١ـ جرت: مرّت

٢ـ الجور: الظلم

٣ـ الذخائر: جمع ذخيرة، ما يخبوه المرء لوقت الحاجة

٤ـ الشح: البخل

٥ـ الإنصاف: العدل، وأنصفَ الخصمين ساوى بينهما وعاملهما بالعدل

شرح النص

مالك الأشتر أحد أصحاب أمير المؤمنين ع، سمي بالأشتر لإصابة إحدى عينيه في معركة اليرموك، إذ أنَّ الشَّتَر في اللغة: هو إصابة العين بالقيح فتجمد، ولَّاه الإمام ع على مصر وكتب له أعظم عهد ودستور في التاريخ يبين له فيه كيف يتعامل مع الرعية، لكنه رضوان الله تعالى عليه لم يحكم حيث دُسَّ له السم في العسل في طريقه إلى مصر (إِنَّ للهِ جُنوداً مِن عَسَل) ودفن هناك، يمدحُ الإمامُ مالكاً كثيراً ومن قوله ع فيه عندما نُعِيَّ إليه: مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ، لَو كَانَ جَبَلاً لَكَانَ فِنداً وَلَو كَانَ حَجَراً لَكَانَ صَلْداً لَا يَرتَقِيهِ الحَافِرُ وَلَا يُوفِي عَلَيْهِ الطّائِرُ، وسُئل أحدهم عن مالكٍ فقال: ماذا أقول في رجلٍ حياته هزمت جيوش الشام ومماته هزمت جيوش العراق.

حينما أرسله الإمام عليه السلام إلى مصر بعث إليهم كتاباً عرفهم فيه (الكتاب ٣٨):
أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لاَ يَنَامُ أَيَّامَ الخَوْفِ، وَلاَ يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ، أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرَيقِ النَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِج، فَاسْمَعُوا لَهُ وأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ، لاَ كَلِيلُ الظُّبَةِ، وَلاَ نَابِي الضَّرِيبَةِ..

(ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ) اعلم يا مالك أني قد أرسلتك إلى بلاد قد مضت عليها دول ـ جمع دولة ـ قبلك وقبل دولتك منها دول عادلة ومنها ظالمة.

(وَإِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاةِ قَبْلَكَ وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ) الناس ينظرون إليك كيف تعمل أيام حكمك كما كنت أنت تنظر في الحكام قبلك وتقول هذا حسن وهذا سيء كذلك الناس يقولون فيك ما كنت تقول في الولاة قبلك من تحسين حسناتهم وتقبيح قبائحهم، أي كنت يا مالك تسمع أخبار الولاة وتعيب قوماً وتمدح قوماً وسيقول الناس في إمارتك الآن مثل ما كنت تقول في الأمراء فاحذر أن تُعاب وتُذم كما كنت تَعيب وتذم من يستحق الذم.

(وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ) إنما يعرف ويشار إلى الولاة الصالحين بما يكثر سماعه من ألسنة الناس بمدحهم والثناء عليهم لأنَّ مدح الناس دليل على صلاحه، وكذلك يُستدل على الفاسقين بمثل ذلك، وهناك رأيان: قيل يُستدل على الصالحين من الولاة بما يقوله عامة الناس فيهم وقيل بما تقوله الطبقة المستضعفة من الحفاة والعراة، وكان يقال: ألسنةُ الرَّعيةِ أقلامُ الحَقّ سُبْحَانَهُ إلى المُلُوكِ.

(فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ) فليكن ما تدَّخره لك هو الأعمال الصالحة فإنَّ ذخيرة الملوك هي الجواهر والأموال والثروات فادخر أنت الأعمال الصالحة.

(فَامْلِكْ هَوَاكَ) امسك هواك لئلا يردك موارد الهلكة

(وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحْبَبْتَ وَكَرِهْتَ) الشح هو البخل الشديد وهنا ممدوح حيث أنَّ الإمام عليه السلام يقول ابخل بنفسك بخلاً شديداً فلا تبذلها فيما لا يحل لك من الأعمال والأقوال، فإنَّ الشح بالنفس أي عدم صرفها في موارد الهلكة هو إنصاف لها فيما أحببت بعدم التعدي، أو كرهت بعدم التفريط، أي يا مالك لا تتعامل مع الرعية على أساس الحب والكره بل تعامل بحسب قابلية واستحقاق كل أحد منهم.